مقياس مدخل إلى علم الأثار

الدرس الأول: مفاهيم وميادين علم الآثار

ما هو علم الآثار

إن علم الآثار هوا لذي يدرس الحضارة الإنسانية من خلال البحث عن نشاط الإنسان أي البحث عن كل ما مسته اليد البشرية وغيرته من حالة إلى أخرى؛ محللا البقايا الماديةِ، بما فيها المنشآت المعمارية، والمصنوعات اليدوية والبقايا البشرية؛التي تصبح بعده أثرا دالا على تجربته ومؤرخة لعصره. وبما أن التاريخ هو السجل الزمني لنشاط الإنسان على الأرض و المراحل التي قطعها،فإن علم الآثار هو العلم الذي لا ينضب في تزويد المؤرخ بالمصادر المادية لإغناء معلوماته .

يتحدث الكثيرون عن هذا العلم وماهيته وأهميته ولكن يبقى التساؤل دوما عن مجاله الواسع وتخصصاته المتداخلة والمتشابكة بدرجة كبيرة ،فمفهومه اللغوي هو علم القديم archeo–logos كما أسماه الإغريق (القديم: archeo)، ثم تلاهم الرومان الذين اعتبروه علم دراسة الشعراء الإغريق لأن حضارة هؤلاء تميزت بالإنسانية والفلسفية والشاعرية على عكس الرومان الذين غلب عليهم الطابع العدواني) أما المواد والتحف القديمة فكانوا يسموها الأنتيكيتي antiquites

مع بداية القرن السابع عشر الميلادي، كان ينحصر في دراسة المباني الكلاسيكية القديمة أما المخلفات مجهولة الهوية فقديما كانت تنسب إلى الشيطان وتعتبر أنها صواعق وشظايا سقطت من السماء. وفي عصر التنوير تخلص علم الآثار من النظريتين الخرافية والمثالية، وأصبح ذو دلالة تاريخية. أما العرب فقد كانوا يطلقون على المخلفات القديمة التي لا يعرفون أصلها لفظ (العاديات) نسبة إلى قبيلة عاد البائدة.

إن مفهوم هذا العلم عند الرأي العام الشعبي كان مرتبكا إلى حد كبير ،فلا يدري أين يبدأ وأين ينتهي ،فكانت الغالبية تخلط بين التاريخ وتاريخ الفن و علم الأثار؛ فاهتمام تاريخ الفن بالتحفة ينحصر في تقييم قيمتها الجمالية بينما يركز علم الآثار اهتمامه على القيمة الحضارية للقطعة الفنية.

ميادين علم الآثار:

يدرس و يعالج التاريخ الماضي القريب والبعيد،وبما أن الماضي متعدد الجوانب فهو جيولوجي ونباتي وحيواني أدبي وفني وسياسي واجتماعي وتشريعي ونفسي ...الخ، فهو يتضمن جوانب عديدة من الحياة، لكن ترى بمنظارين اثنين: إما اضمحلت واختفت تاركة وراءها بعض المعالم، أو مازالت قائمة ومستمرة، فتاريخ هذه الأخيرة يكون هو تاريخ تغيرها وتطورها واستمرارها عبر الزمن .

أما علم الآثار يهتم بدراسة وتفسير القسم المندثر من التاريخ،إذ يبحث وينقب عن آثاره ومعالمه المتبقية ويلاحظها ويفحصها ثم يستخلص منها النتائج العلمية المنطقية المناسبة، وبطبيعة الحال تكون هذه المعالم إما فنية بحتة أو معمارية على الغالب؛ ومن هنا يتدخل تاريخ

الفن في الموضوع دون أن يتجاوز المحتوى التشريحي والطرازي حتى المضمون الجمالي للقطعة الفنية، وبالتالي يتم اكتشاف نفسية ومشاعر المعماري أو الفنان وكذا التأثيرات التي أملت عليه هذا الشكل أو ذاك من عمله الفني،بينما يكون دور عالم الآثار مركزا على اعتبار هذه التحف أو المظاهر التاريخية كشواهد لنشاط الإنسان عبر الزمن، وكدلائل لحضارة ما أو لتفكير اجتماعي، وهو يقوم بدراستها ليس لأنها أعمال فنية راقية فحسب وإنما لكونها تشكل كنوزا من الوثائق؛ فآلة بسيطة ما قد تكون لها أحيانا قيمة عالية عند الأثري وأهم بكثير من تمثال رائع الجمال، لأن تلك الآلة البسيطة تدله على تفاصيل خاصة بالإنسان الذي صنعها واستخدمها.

يواجه عالم الآثار مشكلا آخر، وهو وجوب عدم الخلط بين النقد الفني وتاريخ الفن الذي حددنا مفهومه من قبل وذكرنا أنه واحد من الجوانب التي تعتمد في بعض الأمور على علم الآثار منحى دراستها،لأنه من الضروري أولا اكتشاف القطعة الفنية ومن ثم معالجة جانب تاريخها الفني.

أما تاريخ الأدب، فمهمته تنحصر في دراسة كل ما أنتجه الإبداع الإنساني، ففي جانب الكتابات فهو يحلل تاريخ الأدب في كل الكتب،ليحلل بذلك الكتابات ويبحث مصادر الوحي فيها كما يدرس التأثيرات الشخصية والحياتية للمؤلفين، والتي طبعت مؤلفاتهم الشخصية ،فتلك الكتابات، كالهيروغليفية في مصر والمسمارية في بلاد الرافدين والفينيقية في بلاد فينيقيا، كله تمثل مصادر مادية، وفرها الأثري لدارس لتاريخ الأدب .

غير أنه من جانب آخر نجد أن الأثري يركز في تلك المخلفات ويرى فيها مصادر ومنابع للوثائق التي تعينه على دعم تحليلاته الدراسية أثناء البحث، وهكذا يعتبر أسلوب المؤلف أمرا ثانويا وبهذا نميز بين مؤرخ الأدب والأثري بعد أن يستخلص الوقائع والتواريخ والخطوط الكتابية في تلك الكتابات.

أما قارئ الخطوط épigraphe، فبالإضافة إلى مهمته في الترجمة يقوم بتحليل وتصنيف أنواع الخطوط والإشارات والعلامات للتوصل إلى معرفة منابعها والتأثيرات التي طرأت عليها وكذا طرز وأساليب عصرها ومكانها، وهنا أيضا سيستفيد الأثري من ترجمات قارئ الخطوط ليس من جوانبها الجمالية والطرازية ،إنما باعتبارها وثائق تعينه في دراساته وتحليلاته وبنفس الطريقة يمكن للأثري أن يستفيد من مظاهر التاريخ الجيولوجي والحيواني والنباتي وغيرها الكثير

أما علم التاريخ فيرى الأثري فيه عنصرا يتكامل مع علم الآثار ويعتمد عليه، رغم الاختلاف بينهما في الأهداف وطرق البحث. فعليه نرى أن تعريف علم الآثار بكلمة واحدة يصبح مستحيلا تقريبا. لأن هذا العلم يعتبر قبل كل شيء نوعا من المقالة المتكاملة أو التركيب المعقد. ويمكن تحديد علم الآثار الرئيسي من خلال صياغة تساؤل: كيف كان يعيش أسلافنا وكيف كانت طريقة تفكيرهم؟

وبصيغه أخرى يمكن أن نعرفه بأنه العلم الذي يعالج ويدرس كافة أنواع الوثائق مهما كانت طبيعتها. والتي قد تعين على إلقاء ضوئها على ماضي الإنسان ونشاطه وحضارته. فلا يمكن إذا أن نسمي علم الآثار كما يحلو للبعض بأنه علم دراسة الأحجار القديمة، إذ أنه رغم اهتمامه بتلك الأحجار فهو يحاول من خلالها العثور على أثر نشاط الإنسان الغابر. ويمكننا أيضا وضع صياغة أخرى لتعريف علم الآثار فتقول: إنه ذلك العلم الذي يعالج مفهوم الإنسانية الغابرة

فيصبح إذا وبموجب هذا التعريف علما معقدا ومتنوعا تنوع الإنسان نفسه. وهنا يجب البحث عن حدود علم الآثار ليس في جانب الموضوع ولكن من جانب البعد الزمني.

وإن كان البعض يحصر مهمة علم الآثار في حدود دراسة الشعوب التي تجهل الكتابة ،فالبعض الآخر حاول أن يضع حدودا مميزة زمنيا بين هذا العلم وعلم التاريخ، فحد دود الزمن الأثري بعصر النهضة دون تجاوزه بينما الحقيقة تبين أن علم الآثار يتجاوز عصر النهضة ويستمر حتى يوم غد بل أنه من المستحيل تحديد امتداده التاريخي طالما أن هناك اليوم وهناك الأمس ذلك لأن دراسة نمط ومسيرة الحياة في مدينة بابل مثلا في بلاد الرافدين وفي عصر **حمورابي** هو في نفس مستوى أهمية دراسة مدينة غرناطة غداة احتلالها من قبل الملكة **اليزابيت** الكاثوليكية.

إننا نشهد كل يوم موت ومولد البشر وكما نشهد كل يوم ميلاد وموت أنماط وتقاليد البشر ،وأنماط وتقاليد حياته المختلفة ،وميلاد أفكار وقوانين وأعمال فنية متنوعة وميلاد وموت طرز فنية تبناها ذلك الإنسان. إذا فنحن نشهد ظهور أشياء جديدة كل يوم لتحل مكانها أو تواصل استمرارية الأشياء القديمة التي حلت مكان الأشياء الأقدم.

فحضارة اليوم هي بدورها أقدم وهكذا... عليه سيصبح حقل بحوث علم الآثار محصورا في اصطلاح الأمس اللامحدود، وعندها يكون من المستحيل علينا رسم حدود واضحة تفصل بين علمي التاريخ والآثار (في الجانب النظري لا التطبيقي) وكما نعلم أنه من الصعوبة القيام بدراسة منهجية وعلمية لأحد هذين العلمين ما لم نعمل على تقسيمهما إلى فروع في المجالين الزمني والمكاني، ولكن يبقى الموضوع الأهم الذي يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار الجدي ألا وهو أن الإنسان بمفهومه العام لا يمكن فصله عن الإنسان بمفهومه الفردي. ومن المناسب أن نذكر بأن إنسان ما قبل التاريخ مثل إنسان العصور الوسطى؛لم يختف بعد عن مسرح حياتنا إنما الذي حصل هو أن الزمن قد فكك وبعثر المجتمعات التي كونها ذلك الإنسان وعاش ضمنها، إذا فعلم الآثار الذي يبحث عن ظروف الإنسان هذا إنما يحاول في الواقع التوصل من خلال معرفة الإنسان إلى معرفة مراحل تطور مجتمعاته وعوامل ذلك التطور بالإضافة إلى التوصل لتحديد أسباب اندثار بعض الآثار والحضارات القديمة.

وأما الإنسان الحديث صاحب العقل الآلي فإنه مازال يمثل إنسان ما قبل التاريخ ولكن بلباس متحضرو هو رغم تفاخره بإنجازاته العلمية الكبيرة على الصعيد المادي يبقى الوارث المباشر للإنسان الذي عاش منذ عشرة آلاف سنة (10000 سنة) حيث أن حجم دماغه لم يزد عن دماغ إنسان العصر الهلوسيني holocène، وحتى ردود فعله لم تتغير إزاء الظواهر المحيطة به؛ بهذا ما زال في مرحلة الطفولة لأنه من المحتمل أن يكون الذكاء البشري هذا ليس بأكبر من ذكاء إنسان كرومانيون Cro-Magnon في أغلب الحال، فمن هنا يمكننا أن ندرك أن الاهتمام بالماضي ما هو إلا وجه من وجوه الاهتمام بذاتنا نفسا.

الدلائل المادية لنشاط الإنسان:

تجعلنا بعض الدلائل المادية التي يكتشفها الأثري في الميدان ندرك نوع النشاط الممارس من طرف هذا الإنسان ومعرفة مدى بلوغ درجة تحديه للبقاء والاستمرارية من جهة، وتسهيل أنماط حياته والبحث عن الرخاء بدون انقطاع؛ فنذكر بعضا من هذه الدلائل وما بقابلها من تفسير:

- أدوات حجرية/ الصيد
- أدوات نحاسية/ الزراعة
- أدوات فخارية / المجتمع
- الكتابة وألواحها/ التاريخ
- النقود وألواحها/ التجارة
- العمارة المدنية / المسكن
- العمارة العسكرية/ الحروب
- العمارة الدينية /المعتقدات
- الفن /المعاني و الأحاسيس النفسية.
-

من هو الأثري؟

هو الشخص الذي يكون قبل كل شيء دقيق الملاحظة محبا للإنسانية عامة،ونزيها لأنه مكلف بإعادة رسم صورة للحياة المندثرة للشعوب ،ويجب أن يكون مجردا من الأحكام المسبقة سواء كانت عرقية أم دينية وبهذا يستطيع القيام بالوصف والتحليل واستخلاص النتائج دون انحيازه لأهوائه الذاتية؛ فلا يجوز له أن يزور ظاهرة ما أو ينزع تحفة عن مكانها الأصلي أو يقوم بتغيير دليل بهدف دعم وجهة نظر له ..الخ

إن مهنته عبارة عن موهبة يجب الإخلاص لها والتضحية بالذات في سبيلها والبقية تأتي بالدراسة والخبرات الميدانية ،و يجب عليه التحلي بوجدان نفساني لأن علم الآثار يفرض عليه شروطا قد تتجاوز أعسر أنواع الاختبارات ؛إذ عليه أن يكون قادرا تبسيط الظواهر بمقياس إنساني مناسب وبروح الباحث المتسائل و المحب للمغامرة العلمية، فعليه أن يكون قادرا على عكس صورة الماضي من خلال طريقة تحليلاته الشخصية المتميزة.

إن الأثري الذي يسافر في عمله الميداني عبر الزمن – باتجاه معاكس– لا يصادف الظواهر بصيغة المخطط النظري؛ فالطبقات الزمنية بالموقع لا تظهر له مرتبة على شكل كتاب يسمح له بتصفح أوراقه الواحدة بعد الأخرى، بل إن التمييز بين التراكمات الطبقية يكون معقدا وعسيرا ببعض الأحيان نظرا لتداخل حدودها الواحدة عبر الأخرى في الحالتين الزمنية والمكانية، كما أنها تكون غالبا مطمورة بموجب قوانين شبه ثابتة حتى أنها تصلنا بدرجة حفظ لا بأس بها، ولذلك في عمليات التنقيب لا توجد أساليب خاصة بمرحلة من المراحل، إنما هناك مجموعة من الطرق يمارسها الأثري، وحسب التساؤلات التي يثيرها ذلك الموقع .

من خلال العمل الأثري ،بدءا من مرحلة جمع المعلومات وإلى غاية وضع تلك الموضوعات في متناول الجمهور المهتم ،يجب تمييزها،فأولا جمع المعلومات الأثرية وتسجيلها، تحليلها بعد انتهاء أعمال التنقيب وأخيرا نشر النتائج بصيغة مقالات توضيحية. وبما أن كل عملية تنقيب هي

عملية تخريب، فمن الواجب تقليل الظاهرة، وذلك يفرض على الأثري القيام بالدراسات العلمية التي تستند بشكل رئيسي على جميع المعطيات التي جمعها بالموقع والتي ستختفي بفعل استمرار عمليات التنقيب ،فتسجيل تلك المعطيات إذا يعتبر النقطة الأساسية في مهنة عالم الآثار إذا أردنا لها أن تكون علمية حقا.

بناء على هذا المفهوم المنهجي، على الأثري عدم إهمال دور الوثائق المادية التي يكتشفها في الميدان وهي التي تعتمد عليها مهنته الحساسة؛أي أن مهمة الأثري الأولى هي ضمان الصيانة الأثرية في جميع الظروف وحماية الوثائق التي تظهرها عملية التنقيب إلى النور باعتبارها تراثا ثقافيا تهم جميع شعوب الأرض.